المنهج الإثنوغرافي

يعني مصطلح الإثنوغرافيا علم الإثنوس أي الأمة أو الشعب أو الثقافة ويختلف تعريف هذا الميدان واسمه اختلافا بين العلماء الاجتماعيين حيث منهم من يفضل استخدام الأنتروبولوجيا الاجتماعية أو الثقافية أو الإثنولوجيا ومنهم من يعتبر هذه المفاهيم مترادفة ومنهم من يراها ميادين منفصلة. وتعد الإثنوغرافيا نوع خاص من البحوث النوعية استعملت لأول مرة من قبل علماء الأنثروبولوجيا حيث كان يقضي فيها الباحثون وقتا طويلا يعيشون مع ويلاحظون الثقافات الأخرى في بيئة طبيعية حيث ساعد هذا الانغمار في الثقافة الأخرى الباحث على فهم طريقة أخرى للحياة. وبعد ذلك تم تكييف فكرة الإثنوغرافيا لموضوعات أخرى مثل السياسة والتربية والعمل الاجتماعي والاتصالات فهذه الاختصاصات كانت أقل اهتماما بوصف طريقة حياة بكاملها وأكثر انشغالا بتحليل وحدات أصغر مثل الجماعات الفرعية والمؤسسات والتنظيمات والمهن والجماهير، ولهذا اقترح"بيرغ" الإشارة إلى الدراسة التقليدية للثقافات برمتها على أنها الإثنوغرافيا الكبرى أو الكلية وإلى دراسة وحدات التحليل الأصغر بأنها الإثنوغرافيا الصغرى أو الجزئية وهذه الأخيرة هي الأكثر استخداما من قبل الباحثين في وسائل الإعلام. ومع ظهور مايسمى الإثنوغرافيا الجديدة على أنقاض الإثنوغرافيا التقليدية أو الكلاسيكية والتي تأثرت بالمناهج البحثية اللغوية كثيرا عملت على تطوير أساليب متطورة دقيقة لدراسة موضوعات جديدة ومهمة على غرار نظم التصنيف ويقوم هذا النوع من الإثنوغرافيا على تراث الإثنوميتودولوجيا الذي يعتمد على توجيه التحليل الاجتماعي إلى دراسة بناء الواقع الاجتماعي اليومي والتفاعل الاجتماعي الذي يبنى على ما ينتجه الأفراد من كلام وتنظيم اجتماعي وهي عملية ابتكارية مستمرة لتسجل بذلك الإثنوغرافيا الجديدة أو النقدية لحظة تحول مهمة في الحقول البحثية لمختلف التخصصات الاجتماعية والاقتصادية والتعليمية واللغوية والإعلامية وأنتجت صبغة بحثية ملائمة لدراسة كل العلاقات فالطبيعة الناقدة للإثنوغرافيا تهتم اهتماما بالغا بعلاقات القوة التي يعاد إنتاجها في فضاءات تتحدد باختلاف تموقع الذاتيات فيها.

- تعريف المنهج(البحث) الإثنوغرافي

- علم التوصيف الثقافي أي وصف نظام أو مجموعة ثقافية أو اجتماعية وتفسيرها أو دراسة الثقافات بهدف فهمها من وجهة نظر أبنائها أو محلييها .

- وصف وتحليل وتفسير لثقافة مجتمع أو مجموعة من الأفراد أو نظام ما وتركز على الأفعال والمعتقدات واللغات ونمط الحياة لهؤلاء الأفراد أو المجتمعات أو النظام.

- طريقة أو أداة لفهم أساليب وطرق مجتمع ما في الحياة اليومية، وذلك من خلال معرفة الأفكار أعضائه ومعتقداتهم وقيمهم وسلوكياتهم، وما يصنعوه من أشياء وكيف يتعاملون معها ويتم ذلك عن طريق الملاحظة في الوضع الطبيعية لحياتهم.

- هي بحوث كيفية يتم اللجوء إليها في سبيل الحصول على فهم معمق ومفصل للأسباب والمعتقدات والدوافع ووصف شمولي للظاهرة المبحوثة، كما تهدف إلى فهم لماذا وكيف وما التأثيرات والسياقات الخاصة بالمشكلة البحثية من خلال معايشة الباحث لحياة المبحوثين ويومياتهم حيث أن الأفعال الإنسانية وآراء الأفراد ومعتقداتهم تتأثر بالمواقف وبالبيئة التي تحدث فيها ومن خلال السياق الذي يفسر فيه الأفراد أفكارهم ومشاعرهم وأفعالهم، ويتم التوصل إلى هذا الإطار من قبل الباحث خلال جمع البيانات وتحليلها،

ولا يهدف المنهج الإثنوغرافي إلى تعميم النتائج بل توسيع نتائج الحالة التي كثيرا ما تقود إلى مواقف وحالات قد تكون مشابهة.

- الدراسات الإثنوغرافية في بحوث الإعلام والاتصال : لقد عرفت الدراسات الإعلامية طفرة نوعية خاصة منها ما تعلق بتأثير وسائل الإعلام على الجمهور، فبعدما كانت الدراسات تركز على المرسل أو الوسيلة وتنظر إلى المتلقي على أنه سلبي يتلقى ويتأثر بكافة المضامين الإعلامية مباشرة وبصفة مطلقة، غيرت تلك الدراسات من مسارها أو وجهتها حيث أصبحت تركز على المتلقي والعلاقات التي ينسجها الفرد مع الوسائل الإعلامية، و أصبح ينظر إلى المتلقي إثر ذلك على أنه ايجابي ، نشط وفعال في اختيار المضامين الإعلامية التي تتناسب مع حاجاته ورغباته . وأمام عجز الدراسات والبحوث الإمبريقية الكمية في دراسة وتفسير السلوكيات الاتصالية للمتلقي، وكيفية تفاعله مع الرسائل الإعلامية التي يتلقاها من مختلف الوسائل الإعلامية،ظهر توجه جديد في دراسة سلوك المتلقي أو الجمهور يتمثل في المنظور أو المقترب الاثنوغرافي في دراسات الجمهور، فكانت البداية مع الأبحاث التي أجراها "دافيد مورلي" في منتصف الثمانينيات حول الاستعمالات الأسرية للتلفزيون وما طرحه من مفاهيم (سياق المشاهدة ،السياق المنزلي ، الديناميكية العائلية) .

تستمر البحوث الإثنوغرافية فيما بعد خصوصا مع رواج الانترنيت مع نهاية القرن الماضي وبداية القرن الواحد والعشرين، ولاستخداماتها الواسعة من قبل فئات المجتمع خاصة الشباب والأطفال،وظهور مفاهيم أخرى جديدة كالجمهور الإلكتروني ، والجمهور القادر على التواجد في الزمان والمكان وغيرها من المفاهيم الجديدة المتعلقة بالجيل الاليكتروني،ومن بين تلك الدراسات الدراسة الاثنوغرافية التي قام بها "دانيال ميلر و دون سلايتر" حول استخدام الانترنيت في العمل ولدى الأطفال في منطقة "ترينيداد"، ودراسة "بيتريز" حول دور منتديات الدردشة في تغيير النسيج الاجتماعي وبناء علاقات عاطفية جديدة ، إضافة إلى العديد من الدراسات اللاحقة والتي أنجزت ولازلت تنجز من أجل معرفة كيفية تفاعل الإفراد مع الانترنيت والآثار التي تحدثها على سلوكياتهم واتجاهاتهم.

بظهور المجتمعات الافتراضية كنتاج منطقي لكل التفاعلات الحاصلة داخل الفضاء الافتراضي من نقاشات ومراسلات واتصالات دفعت الباحثين إلى محاولة دراستها لمعرفة وتفسير ما يحصل فيها من سلوكات اتصالية وعلاقات اجتماعية وتفسير مختلف التأثيرات الإيجابية والسلبية التي أصبحت تحدثها سواء على مستوى الأفراد أو المجتمعات . ولذلك أدى اتجاه الإثنوغرافيا إلى دراسة البيئة الافتراضية على شبكة الأنترنت إلى ظهور عدد من الاتجاهات البحثية التي ساهمت في تطويرها ومن ذلك نجد الإثنوغرافيا الافتراضية والتي تعنى بدراسة الظواهر والثقافات الحاصلة داخل البيئات الافتراضية وتعنى بإبراز طبيعة الاتصال والترابط البيني والإبداعات والإبتكارات المتبادلة للحياة على الخط والحياة خارج الخط والكشف عن أو اكتشاف العمليات العلائقية الرقمية المعروضة في مجتمعات التداول الالكترونية والهدف هو مساعدة هذه المجتمعات في تطوير بيئة خاصة بها بحيث تولد مستويات أعلى من المشاركة والثقة والالتزام بين المشتركين بالإضافة إلى إعطاء فهم مميز لأهمية وانعكاسات الأنترنت وهو شكل من أشكال الأنثروبولوجيا الاجتماعية الثقافية . وإلى جانب هذا النوع من الدراسات ظهرت الدراسات الإثنوغرافية السيبرية والتي تعنى بإبراز كيف يستخدم الأفراد الأنترنت وكيف أن تلك الممارسات تجعل للأنترنت معنى في السياق المحلي حيث أنه يتم استعادة الفرد للأحداث الماضية ويتمثلها في الأحداث الحالية والخبرات الشخصية والجماعية في الزمان والمكان ، كما أنها تسعى إلى

إبراز دور الشتات والأقليات من الجماهير المستخدمة للوسائط الاتصالية الجديدة في إعادة صياغة الحدود التقليدية في بحوث الجمهور.
ويشكل المنهج الإثنوغرافي الدعامة المنهجية الأبرز في الوقت الحالي لتحليل الميديا الجديدة من الناحية الاجتماعية والنفسية، حيث يتجه إلى البحث في الخصائص الكيفية لظاهرة الميديا الجديدة وبفضل الاستخدام الناجح له تم ابتكار تسميات مستحدثة لهذا المنهج حيث يستخدم "كوزينتر" مصطلح "النيت-نوغرافيا" وهو مفهوم يجمع بين الإثنوغرافيا وتسمية الشبكة العنكبوتية .

ـ أدوات البحث الإثنوغرافي

ـ **الملاحظة بالمشاركة**: لا بد للباحث أن يقوم بدور ما في المجتمع بحيث يتقبله أفراد المجتمع وكأنه أحد منهم وبالتالي يكسب ثقتهم ويبدد الشكوك حول مهمته أين يتوجب عليه أن يتكلم لغتهم ويستخدم في تفكيره نفس التصورات والمفاهيم السائدة ويشعر بالقيم التي يعتنقونها ويعمل معهم ويشاركهم طعامهم واحتفالاتهم وحتى ارتداء ملابسهم ويتعين عليه طوال فترة الدراسة كتابة تقارير يومية عن كل صغيرة وكبيرة تقابله أثناء دراسته، ويحدد"بريتشارد إيفانز" شروط نجاح الملاحظة بالمشاركة كما يلي:

- ✓ قضاء الباحث لفترة كافية بين أفراد المجتمع المدروس مرتبط بحجم المجتمع وطبيعة المشكلة
- ✓ أن يكون الباحث طول فترة الملاحظة أن يشارك في جميع جوانب حياتهم
- ✓ أن يستخدم في حديثه لغتهم لأن المترجم قد يفشل في نقل المعاني بدقة فعامل اللغة مهم جدا.
- ✓ ضرورة الملاحظة الشاملة لكل جوانب الحياة وإن اقتصرت الدراسة على جزء ما(أهمية التفاصيل)
- ✓ على الباحث أن يتخلى عن قيمه وحضارته مؤقتا حتى يستطيع تحقيق الملاحظة الموضوعية
- ✓ يحتاج الباحث لمهارة أدبية في نقل ووصف وتحليل البناء الاجتماعي
- ✓ تدوين التقارير يكون في مكان الأحداث وأثناء حدوثها لإبعاد عامل التحيز والإهمال والذاكرة
- ✓ أن يكون التسجيل بصورة يومية على الأقل

ـ **المقابلة غير الموجهة:** يستخدم الباحث الإثنوغرافي لأثناء الدراسة الميدانية طريقة المقابلة غير الموجهة وتتمثل في مقابلة بعض أفراد مجتمع الدراسة أو كلهم حسب عينة الدراسة فيحاول في المقابلات الأولية اكتساب ثقتهم حيث يبدأ الباحث في توجيه الأسئلة مع إتاحة الفرصة لهم للإجابة المطولة دون توجيه ولا يحاول قطع الحديث بل يشجعهم بكلمة أو أخرى تزيد من حماسهم في الاسترسال في الحديث حول الموضوع الذي يهم الباحث، ويمكن تدوين تلك المعلومات أو تسجيلها إذا كان قد اكتسب ثقتهم، وتتلخص أهمية هذه الطريقة في إتاحتها لفرصة إظهار سمات شخصية الأفراد بإعطاء المعلومات التفصيلية عن الموضوعات التي تدور حولها الأسئلة.

ـ **طريقة الاختبارات النفسية:** هي طريقة غير شائعة وتستخدم في الأنثروبولوجيا الاجتماعية أثناء الدراسات الميدانية لبعض الاختبارات النفسية لتحديد خصائص شخصية أفراد المجتمع المدروس مثل اختبار"روشاخ" ، ويستخدم هذا الأسلوب علماء الأنثروبولوجيا الثقافية الذين يتخصصون في تحديد العلاقة بين الشخصية والحضارة في مجتمع ما.

ـ **خطوات المنهج الإثنوغرافي:** يتطلب إجراء البحوث الإثنوغرافية الخطوات التالية:

- تحديد المشكلة أو الظاهرة التي ينبغي استكشافها والأسئلة الأكثر ملاءمة للإثنوغرافيا تشمل دراسة كيف تعي مجموعة معينة من الناس أو ترى ظاهرة محددة والهدف النهائي لإجراء البحث الإثنوغرافي هو محاولة فهم العالم كما تراه المجموعة موضع الدراسة.

- اختيار الموقع الميداني وهو الأمر الوثيق الصلة باختيار السؤال البحثي وهو المكان أو الأماكن الفعلية التي سيتم فيها جمع البيانات وفي بعض الأحيان يتم تطوير السؤال البحثي أولا وبعدها يتم اختيار موقع ميداني مناسب.

- الحصول على منفذ الدخول وتقرير ما الذي سيدرسه وكما هو الحال عموما مع البحوث الميدانية فإن الباحث الإثنوغرافي سيستخدم بشكل عام التعيين القصدي الهادف باستخدام الرواة الرئيسيين وهم الأعضاء منذ مدة طويلة في المجموعة قيد الدراسة لديهم خبرة بإجراءات المجموعة ونشاطاتها وأنماط اتصالاتها وباستخدام المعرفة التي يقدمها الرواة يقرر الباحث ما هي السلوكات التي سيراقبها ومتى وأين سيراقبها وأي الأفراد سيختار للمقابلات المكثفة وأي الوثائق الرئيسية ذات صلة يمكن تحليلها.

- بداية العمل الميداني أو مرحلة جمع البيانات(الملاحظة والمقابلة) حيث يجب على الباحث أخذ ملاحظات وافرة، وفي هذا الصدد يقدم الباحثون "إمرسون،فريتز وشو" أربعة أنماط من الملاحظات الميدانية وهي: الوصف المكثف ، الوصف الموسع ،اليوميات ، ملاحظة التحليل والتفسير.

- تحليل البيانات: يقوم الباحث بالبحث عن أنماط عامة في البيانات حيث ستظهر فئات تحليلية وسيتم التحقق منها مقابل البيانات لمعرفة ما إذا كانت تقدم تفسيرات ثابتة أو متسقة وفي نفس الوقت يقوم بتفسير البيانات وبتقديم بعض الأسس المفهومية لفهم عام وأكبر لتصورات المجموعات وسلوكاتهم.

- إعداد التقرير المكتوب:يبدأ التقرير عموما بتوضيح الغرض أو السؤال البحثي الموجه متبوعا بالدليل والأمثلة التي توضح المواضيع الرئيسية للبيانات وتفسيرات الباحث للبيانات والتأثيرات المتوقعة للنظرية وللممارسة المستقبلية.